مرسى العرائش : النشأة والتطور

ذ. إدريس شهبون
كلية آداب – عين الشق

1- قدم الحياة الحضرية والنشاط البحري بمصب نهر لوكوس:

لقد شكلت ليكسوس[1] الواقعة على الضفة اليمنى لمصب نهر لوكوس أول محطة هامة على طريق الملاحة البحرية ما وراء مضيق جبل طارق في اتجاه الجنوب (انظر الخريطة1)، بحيث" إن إقامة ليكسوس- من قبل الفينيقيين- في خليج واسع عند مصب نهر لوكوس يبدو مرتبطا، من دون شك، مع هذه الطريق التجارية..."[2]

هذا مع الإشارة إلى أن النهر المذكور كان صالحا للملاحة إلى غاية أوبيدوم نوفوم أي القصر الكبير، الشيء الذي كان يسمح بربط الاتصال مع منطقة خلفية جد خصبة وتصدير منتجاتها.[3]

كما كانت تمتد في الجهة الشمالية من ليكسوس منطقة شاسعة، صالحة للاستغلال الفلاحي يقدر امتدادها بحوالي40 كلم ،يحدها من الشمال والشرق مرتفعات الساحل القليلة الارتفاع، وتخترقها طريق قديمة مؤدية إلى طنجيس. وتدل كثرة المواقع الأثرية الموجودة بها والتي تعود إلى الحقبة الماقبل-رومانية، والتي تزايد عددها خلال العهد الروماني، على استغلال اقتصادي كانت ليكسوس تتحكم في دواليبه[4].

[1] - أرجعت المصادر الكلاسيكية تاريخ تأسيسها إلى ق.12ق.م أي قبل قرطاج ،لكن الأبحاث الأثرية لا تسمح بتجاوز ق.8ق.م

[2] -C.ARANEGUI ,M.FERNANDEZ MIRANDA ET E.HERNANDEZ ,La recherche archéologique espagnole à Lixus : Bilan et perspectives ,in Lixus .Actes du colloque organisé par l'ISAP avec le concours de l'EFR .Larache 1989 ,p.9.

[3] -C.ARANEGUI ...ibid.,p.10 ;F.LOPEZ PRADO ,Reflexiones sobre el origen de Lixus y su delubrum herculis en el contexto de la empresa comercial fenicia ,in Lixus .Actes...op.cit.,p.91.

[4]-C.ARENEGUI...ibid.,p.10 ;M.PONSICH ,Contribution à l'Atlas archéologique du Maroc :région de Lixus ,BAM ,6,1996,p.377-424 ;id.,Fouilles puniques et romaines à Lixus ,Hespéris-Tamuda ,7,1996 ,p.17-22.

كل هذه العوامل وغيرها مكنت ليكسوس، خلال هذه الفترة، من ربط علاقات منتظمة مع قادس وباقي المدن الساحلية في مضيق جبل طارق. وفعلا، فأقدم الخزفيات الفينيقية التي وصلت إلى ليكسوس لا تختلف عما اكتشف في خليج قادس، وويلبا وطنجة. والأمفورات من نوع بونسيك 2-3 ،والكثيرة في هذه المواقع تدعم فكرة فضاء تجاري متجانس مرتكز على استغلال الموارد البحرية. وتشكل المسكوكات القادسية التي وجدت في ليكسوس دليلا آخر على العلاقات الماقبل- رومانية مابين المدينتين والمناطق المجاورة لهما[1].

وقد اعتمدت ليكسوس —التي كانت تقوم بدور توزيع مواد المناطق الجنوبية والداخلية لموريطانيا وتستقبل السلع القادمة من الشرق المتوسطي [2]– في اقتصادها على الثروات البحرية والفلاحية[3].

ويبدو من خلال المعطيات الأثرية أن ليكسوس قد عرفت أوج ازدهارها الأول إلى غاية القرن 5ق.م، من دون شك ،بفضل صناعة تمليح السمك[4].

وستعرف ليكسوس أوج ازدهارها الثاني حوالي منتصف القرن الأول ق.م، نظرا لبناء مصنع ضخم لصناعة الغاروم[5] وتمليح السمك في الجهة الجنوبية من المدينة بالقرب من النهر حيث كان يوجد، من دون شك، المرسى القديم[6].(انظر التصميم1)

---

[1] -C.ARENEGUI...ibid.,p.12.

[2] – محمدرضوان العزيفي، مستوطنة ليكسوس الفينيقية في الكتابات القديمة والحديثة- محاولة لرد الاعتبار-،المصباحية(مجلة تصدرها كلية الآداب سايس-فاس)سلسلة العلوم الانسانية ع.1 ،1995،ص.31

[3] – A. M.VAZQUEZ HOYS ,Lixus en el panorama religioso fenicio de occidente ,in Lixus .Actes...op.cit.,p.109 ;P.FERNANDEZ URIEL ,Algunas consideraciones sobre la miel y la sal en el extremo del Mediterraneo occidental ,in Lixus.Actes...op.cit.,p.327.

[4] -M.PONSICH et M.TARRADELL ,Garum et industries antiques de salaison dans la Méditerranée occidentale ,Paris 1965,p.37.

[5] كان إنتاج هذه المادة يتم عن طريق نقع فضلات الأسماك والأروال والبيض والدم في الملح .وكان يستعمل في الطبخ و التداوي إذ كان مثيرا- للشهية ومساعدا على الهضم.انظر
M.PONSICH et M.TARRADELL ,Garum...op.cit.,p.98-99;
محمد مجدوب ،الصناعة الغذائية في المغرب القديم ،مجلة البحوث ،كلية الآداب المحمدية ،ع. 1991،4،ص 23-34

[6] -C.ARENEGUI...loc.cit.,p.10,12.

وسيرتبط تطور ليكسوس، في الحقبة الرومانية، بنشاط معامل التمليح والغاروم التي وصل عددها 11وحدة صناعية، بالإضافة إلى الإنتاج الفلاحي. وقد بلغ هذا المجمع الصناعي، حسب طراديل وبونسيك، ذروة إنتاجه في أواخر ق.1ق.م وبداية ق.1م، واستمر نشاطه إلى بداية ق.5 م ،بل ربما ق.6 أو ق.7م؛ وتميز بمساحته التي تضم 151 حوضا عن باقي المصانع التي اكتشفت في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[1].

وقد نتجت عن هذه الصناعة البحرية، من دون شك، حركة اقتصادية وفرت لليكسوس موارد هامة[2]، الشيء الذي سمح لها بإقامة عدة بنايات عمومية متميزة كالمسرح المدرج والحمامات والمعابد ومنازل-قصور خاصة

وبعد الفتح العربي لشمال إفريقيا، سيستقر المسلمون بهذا الموقع الذي سيحمل اسم"تشمس". لكننا نجهل، تقريبا،كل شيء عن هذه الفترة. ومن بين الإشارات النادرة التي وردت في بعض المصادر العربية، أن تشمس كانت " على نظر واسع كثيرة الخصب والزرع والضرع " وأن سكانها يتعيشون من البحر، ومنها " تشحن المراكب بالزرع "[3].

إذن هناك تأكيد على الخصوصيات المميزة للحياة الاقتصادية لهذه المنطقة والمتمثلة في الاستغلال الفلاحي (الزراعي والرعوي) والصيد البحري، دون إغفال الدور التجاري لمرسى نهر لوكوس الذي كانت ترسو به المراكب لوضع ووسق مختلف السلع:" نهر لكس تدخله المراكب"[4].

---

[1] -M.PONSICH et M.TARRADELL ,Garum…op.cit.,p.3,6,37;N.VILLAVERDE VEGA ,Aportaciones a la cronologia de la antigüedad tardía en Mauritania tingitana ,datos de las vajillas africanas ,in Lixus.Actes…op.cit.,p.346 ;M.PONSICH ,Lixus.Le quartier des temples,(Etude préliminaire),ETAM-IX,Rabat 1981,p.27.

[2] -M.PONSICH et M.TARRADELL ,Garum…op.cit.,p.37;M.PONSICH,Lixus…op.cit.,p.20.

[3] – كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار .وصف مكة والمدينة،ومصر،وبلاد المغرب،لكاتب مراكشي من القرن السادس الهجري(12م)،نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد،الدار البيضاء 1985،ص189،140

[4] نفس المصدر ،ص189

2- تأسيس مدينة العرائش :

لظروف نجهلها،ربما للحاجة الملحة إلى مرسى ملائم وأرحب من ذلك الذي كانت تتوفر عليه ليكسوس/تشمس، أو لإنشاء مدينة تنسجم وخصوصيات الطابع العربي-الإسلامي الحضري، أسست مدينة العرائش بالضفة اليسرى لمصب نهر لوكوس، على منحدرات السفح الشمالي لهضبة "ارمل" المشرفة على النهر والبحر (انظر الخريطة 2). وهي بموقعها هذا شكلت نقطة التقاء مابين أقاليم "الهبط" و"جبالة" و"أزغار" أو "الغرب". كما أنها لابتعد عن أوربا إلا بحوالي 90كلم، وتطل على الطريق الملاحية الرابطة ما بين البحر الأبيض المتوسط و المحيط الأطلسي.

وقد اشتهرت هذه المنطقة منذ القدم بخصوبتها وغنى مواردها الطبيعية البرية والبحرية. فسكان منطقة ليكسوس"كانوا يصنعون خمرا كثيرا من أشجار كرومهم ويقوم الفينيقيون بتصديره"[1]. وأشار سطرابون في ق.2م إلى أن بحارة قادس كانوا يصطادون السمك بالقرب من ليكسوس[2]. وحسب الحسن الوزان،كانت ضواحي العرائش مليئة بالغيضات والمروج التي "يصطاد فيها كثير من سمك الأنقليس (النون) والطيور المائية. وعلى ضفاف النهر غابات كثيفة يعيش فيها الكثير من[...]الحيوانات المفترسة[...]ويجنى القطن بكثرة من بادية هذه المدينة"[3].

وكما هو الحال بالنسبة للعديد من المدن المغربية، تطرح معرفة تاريخ تأسيس مدينة العرائش إشكالية صعبة. ولا يمكننا، حاليا، إلا أن نرجح بأن قبيلة بني عروس الأمازيغية هي التي شيدتها قبل القرن 9م، بما أنها كانت في هذا التاريخ من بين المدن التي حكمها في سنة 828 أو829 م يحيى أخ محمد بن إدريس الثاني[4]. وفعلا يخبرنا الحسن الوزان أن "العرائش

---

[1] - P.ROUILLARD ,Le commerce grec du Vè.et du VIè.siécle av.J.C.dans les régions de Lixus et Gadès ,in Lixus.Actes…op.cit.,p.213.

[2] -.DESANGES ,Sources littéraires antiques sur Lixus ,in Lixus.Actes…op.cit.p.406.

[3] - الحسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي،وصف إفريقيا ،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر(الطبعة الثانية)،بيروت/الرباط 1983نج.1،ص302

[4] - ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب بروض القرطاس ،في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،الرباط(بدون تاريخ)،ص51

مدينة أسسها الأفارقة القدامى"[1]. ومصطلح"الأفارقة" من التسميات التي أطلقت على الأمازيغ القدامى إلى جانب مصطلحات"الليبيين" و"البربر" و"الموريين"...والشيء الذي يمكن أن يعزز هذه الفرضية هو ما ورد، في بداية القرن17، على لسان ماركو دي غوادا لاخارا، من أن هذه المدينة يسميها "الأفارقة" "عرائش بني عروس"[2].

وقد ورد اسم هذه المدينة الواقعة على نهر لوكوس في المصادر العربية على شكل "العرائش" و"العرايش"، وأجمع جل الذين كتبوا عنها على أن اسمها اشتق من الكلمة العربية "عرائش" التي تعني المكان المغروس بالكروم المعترشة. وفعلا، عرفت المنطقة منذ القدم زراعة العنب، وذلك ما تثبته عملة ليكسوس[3]؛ وتذكر بعض المصادر العربية التي تعود للقرن 14 و15م أن ضفاف نهر لوكوس كانت "مغطاة بالبساتين وحقول الكروم"[4].كما أشارت بعض الوثائق الاسبانية التي تعود للقرن17 إلى "تل الكروم" الموجود بالقرب من حصن القديسة مريم (اللقالق)، وإلى حدائق منازل العرائش المغروسة بأشجار التين والكرم المعترش[5]. بالإضافة إلى هذا، نجد في بعض المصادر الأوربية والمغربية الحديثة إشارات إلى وجود أرض مزروعة كرما بالمقبرة المسيحية ودوالي بالبساتين المجاورة للمدينة[6].

---

[1] - المصدر السابق، ص233.انظر أيضا مارمول كربخال الذي أكد بأن العرائش "مدينة أسسها أهل البلاد على الساحل ،عند مصب وادي ليس(أي اللوكوس)في المحيط .يحدها البحر من جهة ،والنهر من جهة أخرى ".(إفريقيا ،ج.2،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ... الرباط 1984 ،ص188)

[2] -F.MARCOS DE GUADALAJARA Y XAVIER ,Prodición y destierro de los Moriscos de Castilla hasta el valle de Ricote,con las dissensiones de los hermanos Xarifes ,y presa en Berberia de la fuerça y puerto de Alarache ,Pomplona 1614,p.124.

[3] -F.-Z.EL HARRIF et J.-B.GIARD, Préliminaires à l'établissement d'un corpus des monnaies de Lixus ,in Lixus.Actes...op.cit.,p.268.

[4]-A.BLAZQUEZ ,Estudios hitóricos-geográficos de Marruecos ,Africa española ,t.IV,n°.33,29 febrero 1916,p.132 ;L.SECO DE LUCENA ,Marruecos a comienzos del siglo XV según Abu-L-Abbas Ahmad Al-Qalqasandi ,Tetuán 1951 ,p.40.

[5]- DON JUAN DE MEDICIS ,Madrid 15 de diciembre 1613,Archivo General de Simancas ,Guerra antigua ,legajo 789 ;M.R.,Entrega del puerto de Larache a los Españoles ,Mauritania ,junio 1947,n°.235,p.136.

[6]- J.DRUMOND HAY, Le Maroc et ses tribus nomades (trad.par Med Louis S.W .,Belloc)Paris 1844,p.214.
بيان أملاك المخزن بمدينتي العرائش والقصر الكبير (1323هـ)،الخزانة الحسنية بالرباط ،كناش رقم 267.

ونظرا لموقع كل من "تشومس"(ليكسوس) والعرائش الاستراتيجي والقريب من شبه الجزيرة الإيبيرية، يمكن أن نفترض بأن الأولى استمرت تلعب دورها التجاري القديم (أي مرسى تجاري)، والثانية أنشئت أثناء غزو الأندلس لتضطلع بدور عسكري (أي مرسى عسكري)، ولذلك كانت آنذاك مجرد "رباط" هو الذي أشار إليه، من دون شك، البكري (ق11م) قائلا: "يهبط (نهر لوكوس)إلى مدينة سوق كتامة فيسمى هناك واولكس ثم إلى مدينة تشومس... ويسمى بذلك الموضع بسفدد ويتسع هناك وعليه رباط يعرف برباط حارة الأحشيس وهي قرية آهلة يتصل بها فحص مديد يعرف بفحص أبي شيار"[1]. وإلى هذا الدور العسكري تشير بعض الكتابات عند حديثها عن إنزال العرب الهلاليين بها من قبل يعقوب المنصور الموحدي(1184-1199م)والذين اتخذوها قاعدة لهم و"أطلقوا عليها اسم العرايش فصارت إلى البداوة أقرب"[2].

وفعلا، ورد اسم "العرائش"، سنوات بعد ذلك، عند أبي سعيد المغربي الذي عاش في ما بين 1214–1274م. فبعدما ذكر بأنها تقع على الضفة الجنوبية لنهر القصر (لوكوس)، و"تشمس" على ضفته الشمالية، أضاف بأن مرسى مصبه كان، وقتئذ، معروفا ومألوفا لدى البحارة الذين كانوا يحتمون به عندما تباغتهم عواصف المحيط الأطلسي[3].

ويشير بعض الكتاب إلى أن السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق قد بني في سنة 657 هـ/1259م "قصبة" العرائش إلى جانب قصبة مكناس[4]. لكن "الروم" سيغيرون عليها في سنة 668 هـ/1269م، حسب ابن أبي زرع، وسينهبون أموالها ويحرقونها ويهدمونها[5]. وقد أعاد المرينيون بناء ما تخرب منها و"رتبوا بها رباطا"، فاستعادت مرساها الدور الذي أسست، من دون شك، من أجله ألا وهو الربط ما بين الأندلس وشمال المغرب. فعلى سبيل المثال "جلبت عن طريقها بيلة الرخام الأبيض من ألمرية في عهد الحسن المريني زنتها 143 قنطارا

[1] -أبو عبيد الله البكري ،كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ... باريس 1965، ص114
[2] -عبد الرحمان بن زيدان ،إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ،ج.2 ،الدار البيضاء 1990، ص72
[3] – ابن سعيد المغربي ،كتاب الجغرافيا ،حققه إسماعيل العربي ،بيروت 1970 ،ص138
[4] -إبراهيم حركات ،المغرب عبر التاريخ ،م.2 ،من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين ،الدار البيضاء 1978 ،ص153 ؛عبد الكريم التواتي ،مظاهر الثقافة والفكر لعهد بني مرين ،دعوة الحق ،ع.249 ،يونيو 1985 ،ص72
[5] -الأنيس المطرب، المصدر السابق ، ص403

نزلت بالمرسى ثم نقلت في وادي كتامة وحملت على عجل الخشب الى منزل أولاد محبوب على ضفة واد سبو من حيث نقلت إلى ملتقى سبو ووادي فاس..."[1]

وسينمو النشاط التجاري لمرسى العرائش خلال القرن 14م ،حيث صار يفد إليها تجار أهم المدن الأوربية آنذاك مثل ميورقة وجنوة والبندقية. وربما يعود تاريخ إنشاء برج أو حصن "الجنويين" المطل على المحيط الى هذه الحقبة. وأهميتها البحرية والتجارية هي التي تفسر عدم إهمال الإشارة إليها من قبل الخرائط البحرية والجغرافية الأوربية، مثل خريطة الإيطالي بيتروس فيسكونطي (1318م)، والخريطة القشتالية لأبراهام وخفودا كريسكيس (1375م).

3-مرسى العرائش في ق.15-16م :

ستزداد أهمية مرسى العرائش مع انتقال ثقل النشاط التجاري والملاحي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، بفعل التحولات التي شهدها العالم في القرن 15م، من اكتشافات جغرافية وحركات استعمارية واسعة النطاق، وطرد المسلمين من الأندلس.

وفي هذا الإطار هدد البرتغاليون، خلال عملياتهم التوسعية التي استهدفت المغرب، أكثر من مرة ثغر العرائش، لاسيما وقد أصبح قاعدة للمجاهدين والقراصنة الذين كانوا يحتمون بضفاف نهرها. فعلى سبيل المثال، تذكر الحوليات البرتغالية أن هذه المدينة هوجمت ونهبت وأحرقت في سنة 1417[2].وقد سمحت فترة انحطاط وتراجع الدولة المرينية مابين 1415-1471 للبرتغاليين باحتلال كل من أصيلا وطنجة إلى جانب سبتة. ويبدو أن عمليات الغزو والاستعمار هاته قد انعكست سلبا على العرائش إذ يلاحظ الحسن الوزان بأنها هجرت"خيفة"لما يقرب من 20 سنة[3]. وبعد فشل المحاولة البرتغالية لاحتلال جزيرة "المليحة"سنة 1489، قام الأمير

---

[1] - عبد العزيز بن عبد الله ،بلاد الهبط عبر العصور -القصر الكبير عاصمة الهبط -العرائش أعرق مرسى مغربية في المحيط الأطلسي، منشورات مؤسسة القصرالكبير للتنمية.

[2] - J. DE MASCARERENAS, Historia de la ciudad de Ceuta, Academia de Ciencias de Lisboa, 1915, p.127.

[3] - وصف إفريقيا ،ج.1 ،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ...(الطبعة الثانية) الرباط 1980 ،ص233-234

الوطاسي مولاي ناصر، سنة1491، بإعادة تعمير العرائش وتحصينها وبناء "حصن" لحماية مدخل المرسى[1].

لقد سبقت الإشارة إلى نص حسن الوزان الذي يعود لبداية القرن 16م والذي يصف فيه ضواحي العرائش المليئة بالمروج التي يصطاد فيها كثير من السمك والطيور والتي تنتج القطن بكثرة ويعيش في غاباتها الكثير من الحيوانات. وهذا ما يؤكده أيضا مارمول كربخال (ق.16م)، حين يتحدث عن نهر"لكوس" الغني بالشابل والذي "يمر بقرب القصر الكبير مكونا بحيرات كبيرة كثيرة السمك، ثم يسير حيث ترسو بعض السفن المسيحية..."[2].إذن جلبت هذه الموارد الغنية والمتنوعة التجار الأوربيين إلى مرسى العرائش، مثل التاجر لويس دي بريسيندا الذي استقر بمملكة فاس، فيما بين سنة 1510-1515، وفتح محلا تجاريا هاما بها، حتى صارت سفنه تتنقل مابين مراسي جنوة وقادس وسبتة وأصيلا والعرائش وسلا وحيث كانت له بكل واحدة من هذه المراسي وكالة تجارية[3]؛ والتاجر الجنوي طوماس سوميرجا الذي كان يمتلك، في سنة 1532، مصيدة بالعرائش ويتعاطى، في نفس الوقت، للتجارة في مملكة فاس[4].

وستبلغ الأطماع البرتغالية في المغرب ولاسيما المراسي أوجها في عهد الملك دون سبستيان (1554-1578) الذي لم يفتأ يحلم بغزو هذه البلاد الإفريقية. وهناك مجموعة من الوثائق البرتغالية والإسبانية التي يستنتج منها أن ثغر العرائش كان الهدف الاستراتيجي الأول الذي سعى الملك البرتغالي إلى الاستيلاء عليه. فمما جاء في إحدى رسائل دون سبستيان إلى الملك الاسباني فليب الثاني:"إن أفضل وسيلة لمنع الأتراك من الاستيلاء على مراسي مملكة فاس، هي احتلال العرائش، التي تتوفر على مرسى جيد وموقع استراتيجي..."[5].

[1] - نفس المصدر ، ص233-234

[2] - إفريقيا ،ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ... الرباط 1989،ج.2 ،ص189

[3] -Robert RICARD, Etudes sur l'histoire des Portugais au Maroc, Coimbra 1955, p.129, n.2 ; 130-131,n.1.

[4] - Ibid., p.127.

[5] -Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, Dynastie sa'adienne, Angleterre,t.I,11 avril 1576,p.163-166.

وقد أولى السعديون من جهتهم لمرسى العرائش اهتماما خاصا، وهكذا نجد عبد الملك المعتصم"يهيئه للقيام بدوره كاملا فيما يتعلق بالجهاد البحري الذي كان يمارسه الأندلسيون بالمغرب: "...وأمر بإنشاء السفن بالعرائش وصار أهل الأندلس يسافرون في البحر مع أهل المغرب وضيقوا بالنصارى أشد تضييق، وكثرت الغنائم..."[1]".

أما أحمد المنصور الذهبي فقد حصنها وقوى جهازها الدفاعي بعد معركة وادي المخازن التي جرت بالقرب منها في يوم4 غشت 1578[2]، كما جعل منها قاعدة حربية وجمع بها الأسطول. وقد خصها كاتب برتغالي مجهول معاصر لهذه الحقبة، بوصف قال فيه بأن العرائش كانت " مدينة محصنة، وفي نفس الوقت محطة أساسية لقراصنة الجزائر والمغرب. يأتي إليها تجار تركيا ومرسيليا وايطاليا."[3].

4-مرسى العرائش في ق.17م :

بعد فشل محاولات الاحتلال البرتغالية لثغر العرائش جاءت المحاولات الاسبانية. وفعلا قام الملك فليب الثاني (1527-1598) بعدة مناورات دبلوماسية وعسكرية للسيطرة على هذه المرسى التي قال عنها:" العرائش وحدها تساوي إفريقيا كلها"؛ ذلك أن البعد الاستراتيجي الذي تتميز به كان يسمح بمواجهة الخطر التركي ومنافسة بعض الدول الأوربية، وحماية السفن الإسبانية العابرة للمحيط الأطلسي من خطر القرصنة. ولذلك طلبت دول أخرى، مثل تركيا وهولندا وانجلترا، من السلطان السعدي أحمد المنصور أن تقيم بها قاعدة بحرية عسكرية.

وسيستغل الإسبان الظرفية الصعبة التي عرفها المغرب على إثر الصراعات الدامية التي اندلعت ما بين أبناء الذهبي بعد وفاته، للحصول على ثغر العرائش. وهكذا عندما انهزم

---

[1] - محمد رزوق، العرائش داخل إطار القضية الأندلسية، المليحة (منشورات مجموعة البحث حول بلاد الهبط) ع.1، يوليوز 1997، ص60؛ مؤرخ مجهول ،تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكمدارتية ،الرباط 1934 ،ص53

[2] - انظر أحمد بن القاضي ،المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور ،دراسة وتحقيق محمد رزوق ،الرباط 1986 ،ج.2 ،ص836

[3] -Comte Henry de CASTRIES ,Une description du Maroc sous le régne de Moulay Ahmed El-Mansour (1596) ,D'après un manuscrit portugais de la Bibliothèque Nationale.Texte portugais et traduction française ,Paris (Ernest Leroux)1909,p.124.

محمد الشيخ المامون أمام أخيه زيدان فر الى إسبانيا عبر مرسى العرائش"مع قواده ووالدته...مستصرخا بالطاغية الإسباني"[1] (مارس 1609).

وتشير مجموعة من الوثائق التي يعود تاريخها إلى مابين غشت ودجنبر1609 إلى المفاوضات والمساومات الدبلوماسية التي دارت بين الأمير اللاجئ وملك إسبانيا بخصوص تسليم العرائش مقابل مساعدة مالية وعسكرية. وفي هذا الصدد سجل اليفرني أن فليب الثالث " أبى أن يمده فراوده على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهنا ويعينه بالمال والرجال فلم يكترث به إلى أن شرط عليه أن يخلي العرائش من المسلمين ويملكها للنصارى فقبل الشيخ ذلك والتزمه"[2].

وبموجب هذا الاتفاق سلمت العرائش للإسبان في نوفمبر 1610. فقرر مجلس الدولة الإسباني إقامة الإحتفالات لتخليد انتصار" المسيحية في جبهتين: داخلية بإتمام طرد الموركسيين، وخارجية باحتلال العرائش."[3] أما بالنسبة للجانب المغربي فقد " وقع في قلوب المسلمين من الامتعاض من أخذ العرائش أمر عظيم وأنكروا ذلك أشد الإنكار"[4]. وقد اعتبر القادري أن "هذا الأمر...عظيم، فإن في تسليم هذه الحصون للنصارى... إدخالا للوهن على بيضة الإسلام... وتوهينا لأمة النبي عليه الصلاة والسلام وتمكينا لهم"[5].

وستتحول العرائش، خلال حقبة الاحتلال الإسباني هاته، إلى قلعة عسكرية بامتياز لحمايتها من الهجمات والغارات المغربية وأيضا لتتمكن من حماية الأسطول الاسباني الذي كان يعبر بالقرب من السواحل المغربية. وهناك مجموعة من التصاميم التي تعطينا فكرة عن مرسى العرائش في ق.17م، نشير من بينها إلى تصميم فرانسيسكو فوارطي دي أكوسطا الذي يعود لسنة 1616، والذي يشير إلى الرصيف والمرسى والحاجز الرملي.

---

1 - محمد اليفرني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ،طبعة حجرية (بدون تاريخ) ،ص167-168

2 - نفس المصدر ،ص168

3 - محمد رزوق ،المرجع السابق ،المليحة ،ص62-63

4 - المرجع السابق ،ص168-169

5 - محمد بن الطيب القادري ،نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ،ج.1 ،تحقيق محمد حجي ...الرباط 1977 ،ص142

ونظرا للمعارضة التي لقيتها عملية تسليم العرائش من قبل المغاربة، فلن يهدأ بال الإسبان طيلة مدة احتلالهم لها، حتى أنه يمكن القول إن العرائش " عاشت في حالة حرب دائمة، منذ بداية الوجود الإسباني بالمدينة، كما يبدو من خلال الوثائق المعاصرة "[1].

وإن لم تنجح المحاولات العسكرية التي تمت فيما بين 1619-1666 من تحقيق هدفها، فإن تلك التي قام بها الجيش المغربي تحت قيادة كل من علي بن عبد الله والقائد أحمد بن حدو البطيوي، في سنة 1689، قد تمكنت من تحرير ثغر العرائش من قبضة الاستعمار الاسباني. ومباشرة بعد ذلك عمرها السلطان المولى إسماعيل بأهل الريف، وجعلها باشوية، كما اتخذها مرسى عسكريا لدولته، بدل طنجة التي خربها الانجليز قبل مغادرتهم لها في سنة 1684 .

5- مرسى العرائش في ق.18-19 :

استعادت العرائش، بعد تحريرها، دورها ونشاطها الملاحي والتجاري السابق والذي سيزداد في عهد السلطان محمد بن عبد الله (1757-1790) الذي وجه بلاده نحو الانفتاح على البحر.

وقد اعتنى هذا السلطان عناية فائقة بمرسى مصب نهر لوكوس كما تدل على ذلك أعمال التحصين والتعمير التي أنجزها بها. نذكر منها القواعد المدفعية لحماية مدخل المرسى والترسانات لصنع وإصلاح السفن والقوارب .(انظر التصميم 2)

وإذا رجعنا إلى بعض المصادر المعاصرة لهذه الحقبة، نجد مثلا ج.لومبريير يقول: "كانت المراكب تصلح بالمرسى التي كانت تتوفر على مخازن خاصة بها "[2].

وهذا ما استنتجه أيضا ج.ل.مييج الذي لاحظ بأن العرائش كانت في منتصف القرن 19 ملجأ للأسطول المغربي، وأن نهر لوكوس كان يستقبل بالقرب من المدينة سفنا يبلغ

---

[1] - J.BAUTISTA VILAR ,Mapas,planos y fortificaciones hispanicos de Marruecos (s.XVI-XX),Madrid 1992,p.425.

[2] - G.LEMPRIERE, Voyage dans l'Empire de Maroc et le royaume de Fez, fait pendant les années 1790et1791, traduit de l'Anglais par M.de Sainte-Suzanne, Paris1801, p.21-22.

غاطسها 15 قدما، وبالقرب من تل الشميس تلك التي يصل غاطسها 20 قدما ،كما كان يتردد عليها صيادو السمك الإسبان والبرتغال[1]. (انظر التصميم 3)

وأهمية واستمرارية الدور الجهادي للعرائش هو الذي يفسر الحملات العسكرية التي كانت تتعرض لها بين الحين والآخر من الأساطيل الأوربية، كما حدث في سنوات 1765 و1829 و1860 حينما قنبلت من طرف الأسطول الفرنسي والنمساوي والإسباني على التوالي.

لكن العمليات الحربية لا يجب أن تحجب عنا دورها التجاري الهام مع المراسي الأوربية. وهذا ما تذكره المصادر المغربية والأجنبية. فعلى سبيل المثال تسمح لنا " مجلة الغرفة التجارية الاسبانية بطنجة"[2] بتدقيق المعلومات الخاصة بالنشاط التجاري والملاحي لمرسى العرائش فيما بين 1888-1893؛ حيث تم تصدير حوالي 57 نوعا من البضائع، أهمها من حيث القيمة :

- القطاني بنسبة 58,02 %
- الصوف بنسبة 20,10 %
- الحبوب بنسبة 13,77 %

وقد صدرت هذه المنتجات الفلاحية بصفة خاصة إلى أربع دول أوربية هي :

- انجلترا بنسبة 29,04 %
- فرنسا بنسبة 22 , 56 %
- اسبانيا بنسبة 18, 70 %
- البرتغال بنسبة 18, 64 %

وفيما يخص الواردات، تم جلب حوالي 263 بضاعة، الشيء الذي يدل على تنوع وتعدد مواد هذه التجارة. ولكن الطلب كان بالدرجة الأولى على :

- السكر بما يعادل 42, 62 %
- المنسوجات " " 29,40 %

وقد استوردت هذه السلع بالأساس من :

---

1 -J.-L.MIEGE, Le Maroc et l'Europe (1830-1894),t.II,Paris-Rabat 1961,p.231-232.

2 - Revista de la Camara de Comercio Espanola en Tanger, Ediciòn mensual :n°.1,1887-n°.99,1990.

– فرنسا بنسبة 48.75 %

– انجلترا " " 37,01 %[1].

ومن أهم المشاريع التي أنجزت بالعرائش، قبيل عهد الحماية الإسبانية، بناء الميناء. وقد اعتبر الحاجز الرملي العائق الأساسي الذي كان يعرقل النشاط الملاحي لهذا المرسى.

بالغ البعض في وصف خطورة هذه الظاهرة ، بينما أعطاها البعض الآخر حجمها الحقيقي، فإذا كان الحاجز يعرقل فعلا، من شهر أكتوبر إلى شهر مارس رسو السفن الكبيرة، فإنه نادرا ما كان يوقف نشاط المراكب التي تتراوح حمولتها مابين 60–150 طنا.

وقد اختار السلطان لإنجاز هذا المشروع الدولة التي كانت لا تطمع في استعمار المغرب أي ألمانيا، لاسيما بعد إقرار الإمبراطور غيوم الثاني، في مارس 1905، بسيادة المغرب واستقلاله. فكلف الشركة الألمانية هاسنير وجواكيمسون بإصلاح مرسى العرائش وتجهيزها بالمعدات اللازمة، لتصبح صالحة لاستقبال السفن الحديثة. وقد قدرت تكلفة هذه الأشغال ب 8.500.000 فرنك فرنسي.(انظر التصميم 4)

وفعلا تم بناء مكسر من كتل الإسمنت لحماية مدخل الميناء من اجتياح الرمال الآتية من جهة الشمال، وكذا رصيف يسمح برسو العديد من السفن[2] .

ومع إصلاح المرسى وبناء ميناء جديد خلال النصف الأول من القرن 20، في ظل الحماية الاسبانية، بدأ عهد جديد من الاستغلال للموارد البحرية والمنتجات الفلاحية لتلبية حاجيات المستعمر. فبالإضافة إلى أسطول الصيد البحري الاسباني أقيمت بالمنطقة معامل عديدة متخصصة في تمليح وتصبير السمك وتصنيع بعض المواد الزراعية .

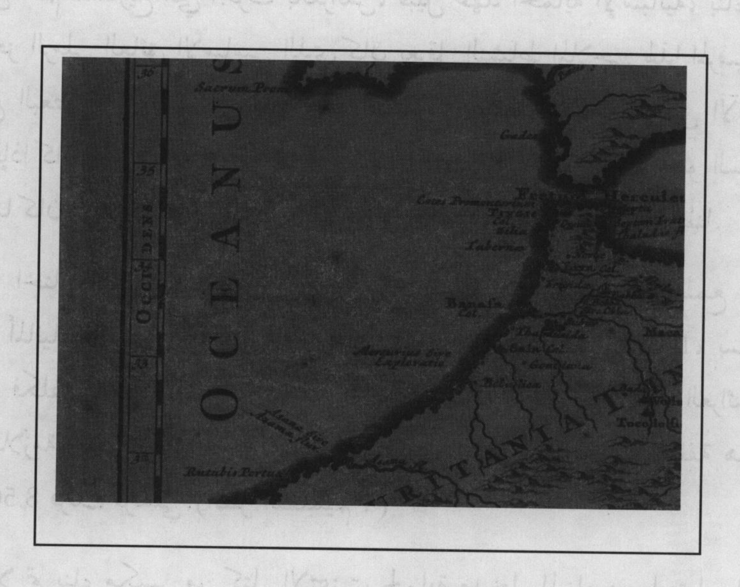
توفر إذن لمرسى العرائش موقع استراتيجي وموارد طبيعية، فلاحية وبحرية، غنية ومتنوعة، أهلها لتضطلع، عبر مختلف العصور، بدور اقتصادي وعسكري لايستهان به في تاريخ المغرب.

---

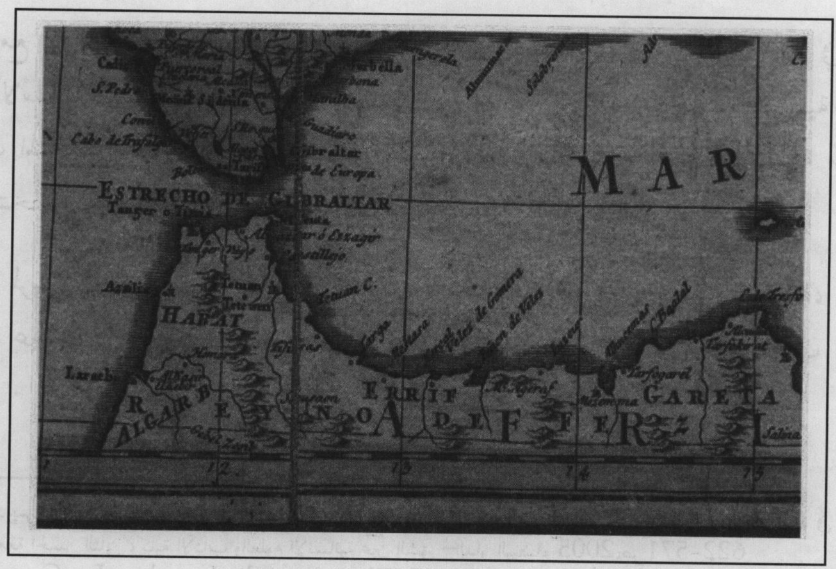
[1] – انظر إدريس شهبون ،مساهمة في تاريخ المدينة المغربية قبل عهد الحماية :العرائش نموذجا ،أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ (مرقون) ،جامعة الحسن الثاني ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق –الدار البيضاء 2005،ص571–622

[2] - Annuaire du Maroc ,1911,p.90-95 ;El puerto de Larache ,La Construcción Moderna,Madrid 1912,p.70-71.

الملاحق :



الخريطة 1 : موقع ليكسوس
(In notitiam ecclesiasticam Africae ...1702 ,gallica.bnf.fr)

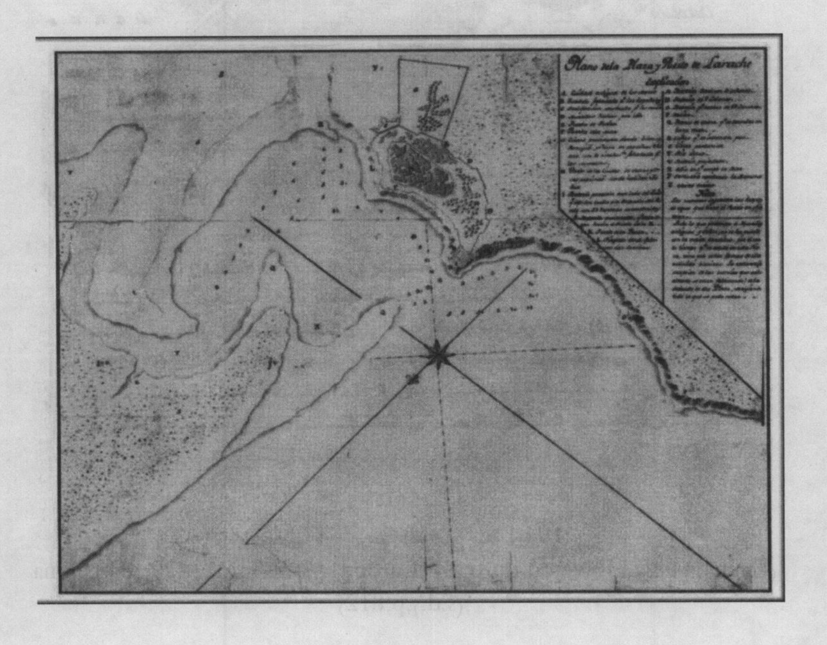


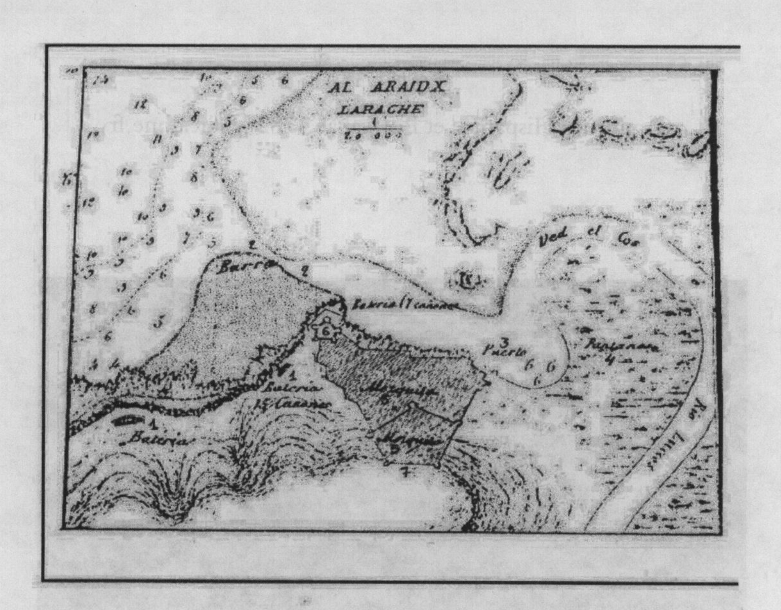
الخريطة 2 : موقع العرائش

(Grgnorum Hispaniae et Portgaliae 1782 ,gallica.bne.fr)



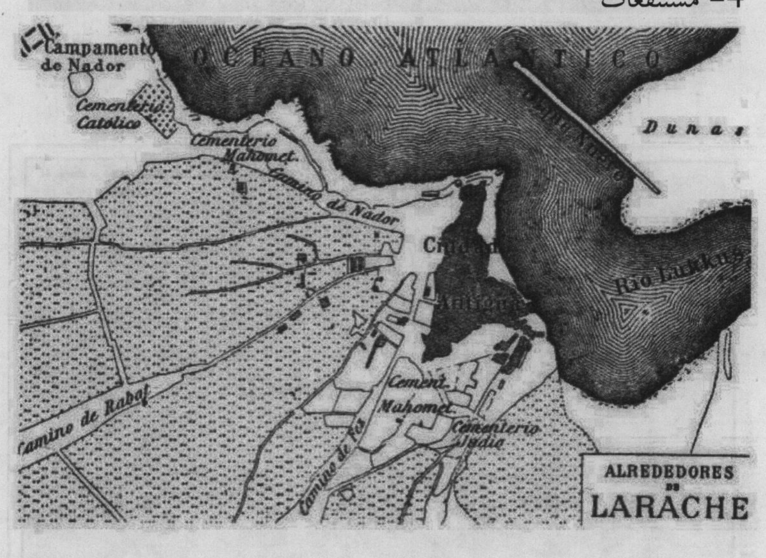
التصميم 1 : أ- مرسى ليكسوس ؛ب- معامل التمليح





التصميم 3 : مرسى العرائش سنة 1859

2- حاجز رملي
3- قناة العبور والمرسى
4- مستنقعات



التصميم 4 : مرسى العرائش سنة 1914
(Enciclopedia Universal Ilustrada ,Europea-Americana ,t.29 ,Barcelona ,(s.d.),p.812)